الفصل الأول
النقد في عصر ما قبل الإسلام

لدراسة هذا الموضوع نطرح السؤال الأتي:هل إن النقد الأدبي كان موجوداً في عصر ما قبل الإسلام ؟

و للإجابة عن هذا السؤال نقول إن هناك طائفتين هما:

الطائفة الاولى: ترى إن النقد الأدبي عند العرب يبدأ من عصر ما قبل الإسلام ، وتستند هذه الطائفة في تحديدها لتاريخ بداية النقد الأدبي إلى فهمها لمعنى النقد ، فهذه الطائفة ترى أن النقد الأدبي: هو مجموعة الإحكام الجزئية الانطباعية السريعة على النص الشعري،ومثل هذه الإحكام كانت موجودة في عصر ما قبل الإسلام، ولا سيما في النقد المرافق للعملية الإبداعية،والذي يمارسه المبدع نفسه، وكذلك في النقد الذي يلي العملية الإبداعية حيث وجدنا مجموعة من متذوقي الشعر يوجهون بعض المحاولات النقدية إلى أمور تتعلق بإيقاع القصيدة، أو نسيج الشعر ، او صياغته أو بمعانيه ، أو بالموازنة بين الشعراء وغيرها من مظاهر نقد الشعر ، كما أن أصحاب هذه الطائفة يذهبون أو يستندون في تحديدهم لبداية النقد الأدبي في عصر من قبل الإسلام الى : أن القصيدة العربية ـ التي هي موضوع النقد الأدبي ـ قد مرت بمرحلة نشوء وتطور وارتقاء حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من نضج على نحو الصورة التي استقرت عليها .وكلمة تطور هنا تفترض النظر أو اعادة النظر في النص الشعري وصولا به إلى مرحلة الكمال أو ما يقارب منه ، ولا شك إن اعادة النظر هذه تشتمل التنقيح والاختيار والاستبدال وفحص العبارة وفحص الصورة وكل هذا يفيدنا بشكل أو بآخرفي النقد الأدبي.

الطائفة الثانية : ترى أن النقد الأدبي المنهجي يبدأ في القرن الثاني الهجري ، ذلك لان هذه الطائفة ترى أن مجموعة الأحكام الجزئية والانطباعية السريعة ليست من النقد الأدبي في شيء ، إنما النقد الأدبي الصحيح : هو الاحكام التي تستند إلى قواعد وأصول ومناهج، بحيث اذا طبقها أي ناقد على النص ذاته اعطت احكاما متقاربة ، ومثل هذا لم يحصل إلا في القرن الثاني الهجري ، حيث أخذت علوم اللغة والأدب تنضج وتكتمل ، وصار للنقد ـ كذلك ـ في هذا القرن رجاله المعنيون بأبحاثه ، إي صار لدينا الناقد العالم ، وصار له مؤلفات ، بوجود الناقد العالم والأثر النقدي المدون ، والمنهج والأصول والقواعد، صار النقد نقدا منهجيا ، أما قبل هذا القرن (القرن الثاني) فقد كان النقد ساذجا بسيطا ، وعبارة عن استجابة لانفعال أولي ، والتعبير عن هذا الانفعال يكون بعبارات ساذجة تناسبه ، فالنقد في عصر ما قبل الإسلام ـ عندهم ـ كان يفتقر إلى أهم أسس النقد المنهجي المنظم .

ويتفق أنصار هذه الطائفة مع أنصار الطائفة الأولى في القول بوجود ملامح ما يسمى بالنقد الأدبي او (ملامح نقدية) في عصر ما قبل الإسلام ، واتفقوا أيضاعلى إن هذا النقد يفتقر الى اهم الاسس النقدية والتي هي :

١- المنهج : لان المنهج لا يتوفر إلا لرجل نما تفكيره فاستطاع أن يخضع ذوقه لنظر العقل .
٢- التعليل : والذي لم يكن من الممكن إن يتوفر لدى الناقد البدوي؛ ذلك لان التعليل يستند إلى مبادئ عامة من العلوم اللغوية مثلا ، ويتطلب إجراء عملية تحليل للنصوص الشعرية والأدبية ، وهذه تتطلب أدوات يمتلكها الناقد ، بحيث يجري من خلالها عملية تحليل النصوص الشعرية ، وذلك لغرض الكشف عن خصائصها الأسلوبية ومضامينها ومعانيها.

لهذه الأسباب يؤرخ أصحاب الطائفة الثانية بداية النقد الأدبي المنهجي عند العرب بابن سلام الجمحي (ت٢٣٢هـ) ، ذلك لأن ابن سلام توفر فيه عوامل الناقد العالم بالشعر، وباللغة (التي هي وسيلة أداء الشعر) ، وكذلك وجود الأثر النقدي المدون ، الذي هو كتابه (طبقات فحول الشعراء)، فضلًا عن وجود النص الادبي المنقود المدون ، ووجود المنهج النقدي ، وامتلاك الناقد لأداتي التحليل والتفسير لكي يصدر على أساسها حكمه على النص الأدبي.

إذن فقد انقسم النقاد الى طائفتين ، تقول اولاهما بوجود نقد منهجي ، أما الثانية : فتقول بعدم وجوده ، ونحن لا نختلف مع الطائفتين ، بل نتفق معهما جميعا ، إذ أن تلك المرحلة كانت تمتلك نقدا أدبيا ، لكنه نقد ذوقي انطباعي ، يفتقر الى عاملي التفسير والتعليل ، اللذان دخلا النقد الادبي بعد انتهاء مرحلة الرواية ، وتدوين النصوص الشعرية ، فأخذَ الناقدُ إذ ذاك يحلل ويفسر على وفق أصول ومنهج وقواعد.

دواعي وجود النقد في عصر ما قبل الاسلام:

عند ما نُؤرخُ لنقدنا العربيّ ، لا نستطيعُ أنْ نهملَ ما كان يدور في مرحلة ما قبل الاسلام من ملاحظات، وأراء حول الشعر ، تقترب من النقد بدرجة أو بأخرى ، وسبب ورود هكذا ملاحظات هو ان هناك أسباباموضوعية دعت الى وجودها.

فالنقد ـ كما ذكرنا ـ يكون ملازمًا للأدب أو تالياً له في الوجود ، فالشاعر الذي كان ينقح نصه الشعري ويعدل فيه ويشذب ، كان يمارس نوعا من النقد ، وهذا النقد هو ما يعرف بالنقد الملازم للعملية الإبداعية، والقارئ أو المستمع ـ في ذلك الحين هو الذي يقع على عاتقه التمييز والموازنة ، فما يقوم به هو نقد تالٍ للعملية الإبداعية ، وهذان النوعان من النقد وجدا قبل الاسلام ، ومرد ذلك الى أسباب عدة ، منها :

١- استقرار تقاليد القصيدة العربية: في بنائها وصياغتها ومعانيها.
٢- وجود الدراسة الشعرية: المتمثلة برواة الشعراء ، إذ كان لكل شاعر راوية أو أكثر يروي أشعاره،ويحفظ معانيها ويتعرف على صورها الفنية.
٣- وجود الجمهور الادبي الذي يفهم الشعر ويتذوقه .

ان الملاحظات النقدية في عصر ما قبل الاسلام كانت تتعلق بالشعر دون النثروالسبب في ذلك ان النقاد هم الشعراء أنفسهم ؛ وكان الشعر مادة متداولة أكثر من النثر.

مظاهر النقد الادبي في عصر ما قبل الاسلام:

عندما وقوفناعلى مجموعة الملاحظات ، والآراء النقدية، التي وردت إلينا من عصر ما قبل الاسلام، نجد ـ من خلالها ـ تشعب اهتمامات الناقد الجاهلي ، وهو يواجه النص الشعري ، فقد كان ينظر الى النص الشعري من جوانب مختلفة ، ومن هذه الجوانب التي أولاها الناقد الجاهلي اهتمامه ما يأتي :

١- نقد عروض القصيدة.
٢- نقد نسيج القصيدة وصياغتها.
٣- الموازنة بين الشعراء.
٤- نقد استخدام الألفاظ والمعاني.

أولا- النقد المتعلق بعروض القصيدة:

المظهر الأول من مظاهر النقد الادبي في ذلك العصر، ما كان يتعلق بعروض القصيدة ، ومما يروى في هذا الشأن أن النابغة الذبياني قَدمَ الحجازَيوما فانشد قصيدة منها قوله:

من آل ميّة رائحٌ أو مغتدي عَجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزودِ

زعم البوارحُ أنّ رحلتنا غدًا وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ

وهنا خطأٌ عروضيٌّ وقع فيه النابغة هو الإقواءُ : وهو انتقالُ حركة الروي من الكسر الى الضمّ ، فلاحظ أهلُ المدينة أنّ هناك خطأً في قافية هذه القصيدة ، فعابوا على النابغة ذلك ، فلم يأبه بهم ، حتى اسمعوه إياه في غناءٍ، إذ قالوا للجارية إذا صرتي الى القافية فرتلي ترتيلا، فلما قالت: (الغرابُ الأسودُ) علم إقواءه ، فتنبه ولم يعد الى ذلك، وقال: ((قَدمت الحِجازَ وفَي شعريَ صنعةٌ ، ورحلتُ عنها وانا أشعر الناسِ))، فهذا التنبيه على الخطأ، وتصويبه يدخل في مجال النقد الادبي.

ثانيا- نقد يتعلق بنسيج القصيدة وصياغتها:

من خلال اِستقراء كتب التراث ، وجدنا نصوصًا تتعلق بملاحظاتٍ وأراءَ نقدية، تخصُ القصيدةَ العربية وصياغتها ، ومن ذلك ما نقلَه المُرزُبانِي في كتابِه (المُوَشَّح)إذ يقول: ((إنَّ أربعةَ شُعراءٍ همُ الزُبرُقانُ بنُ بدروعَمرُو بنُ الأهتَمِ ،والمُخبَّلُ السّعديُّ ، وعَبده بنُ الطّيبِ، إحتَكَمُوا الى رَبيعَةَ بنِ حَذارِالأَسديّ ، في أيّهمُ أشعرُ؟، فقال للزُبرُقانَ بنِ بدرٍ: ((أمّا أنتَ فَشعرُكَ كَلحمٍ أُسخنَ ، لا هُوَأُنضِجَ فأُكلَ ، ولا تُركَ نيئًا فانتُفِعَ بهِ)) ، ويريدُ ان يقولَ للزُبرُقَانَ بنِ بدرٍ أَنَّ شِعرِك وسطٌ ، لَم يَرتفعُ الى مستوى عالٍ من الجودةِ ، ولَم ينخفِضْ الى دونَ الوسطِ ، ثم قالَ لِعمرُو بنِّ الأهتمِ : ((أما أنتَ يا عمرو فان شعرك كبرود حبريتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيه النظر نقص البصر))، يريد ان يقول ان شعر ابن الأهتم متين النسيج والصياغة ، ثم قال للمخبل السعدي: ((أما أنت يا مخبل ، فان شعرك قصرعن شعرهم ، وارتفع عن شعرغيرهم)) ، وقال لعبده بن الطيب:((وأما أنت يا عبده، فان شعرك كمزادة أُحكِمَ خرزها فليس تقطر ولا تمطر))، يريد القول ان شعرعبده بن الطيب متين النسيج قوي الصياغة))

وهذا من انضج الأمثلة على طبيعة النقد في عصر ما قبل الاسلام، الذي كانت فيه الاحكام ـ بصورة عامة ـ تعبر عن الانطباع الكلي للناقد أزاء النص، دون اللجوء الى التحليل والتعليل.

ثالثا- الموازنة بين الشعراء :

الموازنةَ بين الشعراء منهجٌ مهمٌ في النقد الادبي العربي ، نضج واكتمل في مراحل لاحقةٍ ، لا سيما عندالامدي في كتابه (الموازنة بين ابي تمام والبحتري)، وقد وجدت البذور الاولى لهذا المنهج في عصر

ما قبل الاسلام من خلال ما يروى عن حكم أم جندب الطائية بين زوجها إمرئ القيس وعلقمة بن العبد إذ طلبت منهما ان يقولا شعرا في وصف فرسيهما ، على وزن واحد وقافية واحدة، فقال أُمرؤالقيس:

فللسّوطِ الهوبٌ وللساقِ درةٌ وللزّجرِمنهُ وقعُ أخرج مذهب

فقالت له :((أجهدتَ فرسكَ بسوطكَ وزجرته فأتعبته)).

وأنشد علقمة :

فأدركَهنَّ ثانيًا من عنانِهِ يمرُّ كمرِّ الرائحِ المتحلّبِ

فقالت لعلقمة : ((أدركت فرسك ثانيًا من عنانه ، ولم تضربه ، ولم تتعبه)) ، فقالت لامريءالقيس: ((علقمةُ اشعرُ منكَ)) ، فقال : ((ما هُو بأشعَرَ منّي ، ولكنكِ لهُ عاشقةٌ))،فسُميَ علقمةُ الفحلُ لذلك.

وهناك من النقادِ والدارسينَ من يشكّكُ بهذهِ الموازنةِ ، مدعين انه من غيرِ المعقولِ أَنْ يتوافرَلامرأةٍ بدويةٍ هذهِ المعاييرُ في ذلكَ الوقتِ!، وورد كذلك اعتراضٌ على هذهِ المصطلحاتِ العروضيّة ، ومهما كان من اعتِراضٍ على الموازنةٍ ، فإنها تُعدُ أُنموذجًا للنقد الادبي في عصرِ ما قبلَ الاسلامِ.

رابعا: نقد الألفاظ في استعمالاتها ودلالاتها :

الألفاظَ عنصرٌ من عناصرِ النصِّ الشِّعريّ ، والتّنبيهُ على بعضِها في النصوص الشعريّةِ في استعمالاتها أو دلالاتها ، يدخلُ في النّقد الادبيّ كذلك ، وقد وُجِدَ مثلُ هذا الضرب من النقدِ في عصرِ ما قبلَ الاسلامِ ، ومِما يُروَى في ذلكَ أنَّ النابغةَ الذبيانيّ الذي كانَتْ تُنصبُ لهُ قبةٌ حمراءَ من الجلدِ في سُوقِ عُكاظٍ ، فتأتيهِ الشُّعراءُ تعرضُ عليهِ إشعارَها وجّهَ مثلَ هذهِ الانتقاداتِ الى شعراءَ في إستعمالِهم لبعضِ الألفاظِ في أشعارِهِم ، فقد رُوِيَ أنّ حسانُ بنُ ثابتٍ ، أنشَدهُ قصيدةً منها قولُهُ:

لَنا الجَفنات الغُرُّ يلمَعن بالضُّحَى وأسيافُنا يقْطُرنَ مِنْ نجدةٍ دما

وَلَدنَا بَني العَنقاءَ وابَني مَحرقٍ فأكرمْ بِنا خالًا وأكرمْ بِنا إبنَما

فقالَ له:((أنت شاعرٌ، ولكنّكَ أقللتَ جفانَك وأسيافَك ، وفَخرتَ بِمَنْ وَلدْتَ، ولمْ تفخرْ بِمَن وَلَدَكَ،)) فالنَقدُ الموجهُ الى حسّانَ هو نقد يخص أستعماله صيغة جُموعَ القلّةِ في مَوضعِ الفَخرِ، في لَفظَتي (الجَفناتِ وأسيافَ)، وكانَ يُفتَرضُ بِهِ أنْ يَستعمِلَ صيغة جُموعَ الكَثرةِ، فيقولُ بَدلَ ذلِكِ (الجِفانُ والسُّيوفُ) لتكونَ دِلالةُ الفخرِأكبرُ.

فمثلُ هَذا النّقدِ موجهٌ الى الألفاظِ والخطأ في دِلالاتها.